

إيتيل عدنان: قرينة النور والماء

مي مظفر / العراق

"اقترنثُ بالنور، وأنجبثُ الأجنة

أنا نهر يا حبيبي

ولا تستطيع إلا أن تبكي على شاطئتي"¹

قليل من قراء العربية يعرفون إيتيل عدنان (1925-2021)، وأقل منهم من اطلع على شعرها ونثرها المكتوب بالإنكليزية والفرنسية. ولا أعرف كم منهم تسنى له الاطلاع على المترجم من أعمالها إلى العربية وهو ليس بالقليل، فأدبها لم ينل الرواج الذي يستحقه في حياتنا الثقافية.

شاعرة وروائية ورسامة، إيتيل عدنان مزيج من أعراق وثقافات، ينبوع عطاء ثري، ومسيرة ثقافية تمتد على مدى حقبة بين بيروت وباريس وكاليفورنيا. إنها نبع بلاد الشام ونتاج ثقافات العالم، كتاباتها ذات نسيج فريد ونادر في أدبنا العربي. أقول أدبنا العربي على الرغم من أن إيتيل تكتب بالإنكليزية والفرنسية، ذلك لأن جوهر فكرها وأدبها محض عربي شرقي.

ولدت إيتيل في بيروت (1925م) لأب مسلم سوري، كان ضابطاً في الجيش العثماني، وأم يونانية مسيحية. تقول إيتيل:

"ولدتُ في بيروت، لبنان، لأن والدي غادراً تركياً بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

كانت بيروت قرية من دمشق، وطن أبي، وبعد سنوات كثيرة ولدتُ أنا في عالم

يختلف كل الاختلاف عن العالم الذي عرفه والداي"².

تلقت تعليمها الابتدائي والثانوي في مدرسة كاثوليكية فرنسية (في دير كاثوليكي) في بيروت، فأصبحت الفرنسية لغة التعبير الذي جبلت عليه ثقافتها. ومن خلال مسيرتها الدراسية تعلمت الألمانية والإنكليزية. أراد والدها أن يعلّمها العربية، فطلب منها نسخ كتاب تعليم القواعد للأتراك، فذلك ما كان يعرفه. فواظبت لمدة طويلة على نقل حروف وكلمات لم تكن تدرك معناها، وتعلقت بالحرف العربي وشكله وإن لم تصل إلى حد إدراك المحتوى من تركيباته اللغوية. ذلك ما سيظهر تأثيره عليها لاحقاً.

في مقالاتها الشاملة بعنوان "الكتابة بلغة أجنبية"³ تتحدث إيتيل بالتفصيل عن نشأتها وحياتها وتكوينها الثقافي، كما تتحدث عن بداياتها الشعرية في ذلك الدير الكاثوليكي في مسقط رأسها،

¹ إيتيل عدنان: من ديوان: ما يخص أزهار الربيع، وتجليات الرحلة (بالإنكليزية) The Spring Flowers Own & The

Manifestations of the Voyage.

² To write in a Foreign Language, Etel Adnan

³ Etel Adnan: "To Write in a Foreign Language".

بيروت. كانت بيروت آنذاك لصيبة يافعة مثل إيتيل، مجالا للقاء وجوه جديدة، والاستماع إلى لغات عديدة، فالمدينة، كما تصفها: "عاصفة صغيرة من حرب وموتعة"⁴.

ظلت إيتيل، بحكم نشأتها، تعتبر الفرنسية لغة خطابها وتفكيرها. في مطلع الخمسين ذهبت إلى باريس لدراسة الفلسفة في السوربون. ولكنها سرعان ما قطعتها بسبب حربها على الجزائر، ولتواصل دراستها في أمريكا، وليستقر بها المقام (1955) في جامعة بيركلي - كاليفورنيا. فأدركت من انخراطها في دراسة الفلسفة بالإنكليزية أن الانتقال من الفرنسية التي تتقنها إلى الإنكليزية التي ما زالت تتلمس الطريق إليها، كان يعني تحولا شاملا في طبيعة التفكير والمشاعر، بل هو: "زلزال خفيف يضرب حياة الطالب". فتوقفت عن الكتابة بعض الوقت، لأنها كانت في حالة اكتشاف متواصل.

لم يستمر بقاؤها في الجامعة أكثر من سنوات قليلة، ولم تقدّم أطروحتها، بل أثرت العمل بوظيفة في كلية صغيرة بالقرب من سان فرانسيسكو تدرّس فيها العلوم الإنسانية. وعن طريق هذا العمل الوظيفي، الذي أسست من خلاله حياة مهنية جديدة، أعادت صلتها بكتابة الشعر. ولكن، بأي لغة ستكتب؟

كانت الفرنسية ما تزال لغة الشعر لديها، غير أن اصطدامها بالواقع السياسي المرير، كما تمثل في قضية الجزائر وحرب تحريرها ضد الاستعمار الفرنسي، جعلها تعيد النظر في ثقافتها. تنهت إيتيل إلى حقيقة ما يدور، وأدركت وحشية الاستعمار وسعيه إلى طمس معالم الآخر وإنكار حقوقه مما جعلها تنحاز بالضرورة. تقول: "كنت أخوض الحرب بمشاعري". ولكن، في جامعة بيركلي (1955م)، كاليفورنيا، ثم في هارفارد، وجدت أمامها حروبا أخرى، فقد كانت أمريكا تخوض حربها ضد كوريا ثم فيتنام.

في تلك المرحلة، تصاعد الوعي القومي العربي والدعوة لإقامة دولة عربية واحدة، ليصل إلى ذروة عنفوانه. وبدافع إحساسها القوي بانتمائها العربي، أصبحت غربة إيتيل غربتين: اللغة والوطن. لقد أوجد هذا التداخل ما بين وعيها السياسي ووعيها الثقافي أزمة ظلت تلازمها على مدى سنوات العمر لتشكل عاملا حاسما في توجيهها الفكري أولا وصياغة تعبيرها اللغوي ثانيا. بل حثّها على البحث عن وسائل تعبير فنية أخرى خارج ميدان اللغة المكتوبة. في ذلك الوقت انفتح أمامها أفق رحب آخر حين توجهت إلى الرسم، وقالت لنفسها "سأرسم بالعربية".

مع الوقت، أصبحت إيتيل أكثر تلاؤما مع اللغة الإنكليزية، بل أصبحت "تعيش فيها"، فاقتحمت فضاء الشعر الإنكليزي بقصيدة مناهضة لحرب فيتنام لتجد نفسها بعد ذلك في قلب الحركة الشعرية في أمريكا. تقول إيتيل عن تجربتها هذه:

⁴ كل ما أتى وسبأني من معلومات شخصية عن حياة إيتيل، واستشهادات، مستقى من شهادتها "الكتابة بلغة أجنبية"، ومن معرفتي الشخصية بالكاتبة.

" دخلت اللغة الإنجليزية مثل مكتشف. كل كلمة كانت تولد حيّة، وكل تعبير كان إبداعاً... كانت الكتابة ضرباً من الرياضة والجُمْل، بكل ما تحمله من طاقات مخزونة، خيلاً من الممتع ركوبها لاقتحام الفضاء المفتوح أمامها."

ولم يفارق العالم العربي وجدانها قط. ففي 1972 قررت التخلي عن التدريس، بل عن العيش في أمريكا، فالتجّمت إلى بيروت لتقيم فيها. كانت بيروت تعيش أجمل سنواتها. وسرعان ما انجرفت إيتيل في التيار الثقافي العام، ووجدت نفسها ثانية تمارس الفرنسية كتابة وحديثاً، حين أنيط بها رئاسة الصفحة الثقافية لصحيفة تصدر باللغة الفرنسية. لكن الحرب اللبنانية التي اندلعت عام 1975 فجّرت الناس والمباني معاً، وفُرقت الناجين منهم أشتاتاً. فبعد عامين من الحرب الضروس اضطرت إيتيل للتوجه إلى باريس، على أمل العودة إلى بيروت بعد أن تخمد نار الحرب. هناك كتبت رائعته، وروايتها الوحيدة "الست ماري روز"، وهو عمل صغير حجماً عميق تأثيراً. في روايتها الصغيرة هذه تدين إيتيل الحرب اللبنانية، وتحدث عن الانهيار الخلقي الذي تفرزه الحروب. كتبت الرواية باللغة الفرنسية، وصدرت في فرنسا قبل أن تترجم إلى عدد من اللغات.

إيتيل: الشاعرة والأديبة

في كتابات إيتيل يتداخل الشعر والنثر تداخلاً حميماً، فللشعر سطوته على كتاباتها، يتسلل إلى مفردات النص وروحه بتلقائية وعفوية. نصوص معدّتها شعر ذائب في جمل نثرية مكثّفة ما إن تلامس الأعماق حتى تُشيع في العقل اضطراباً غامضاً، وحيوية تستثير الفكر والروح معاً بحسّها الإنساني المرهف. في شعرها دعوة للمحبة، وصرخة ضد الظلم، احتضان المغفلين والمهمّشين الواقعين تحت سطوة الإمبراطوريات الكبرى: فلسطين والجزائر ولبنان والعراق. شعر يزخر بالأسئلة، أسئلة الوجود والعدم، الحرية والقيود، الحب والكراهية، الذات والآخر. أسئلة تمتد امتداد الزمن لا أجوبة لها، مع ذلك فهي تطرح باستمرار. ومن منطلق إنساني محض تتسلل القضايا السياسية إلى لبّ جملها بطريقة لطيفة وحاذقة:

"قتلتُ ذبابةً هذا الصباح

لو كنتُ دولةً

لدّمرتُ مدينةً."⁵

مع أن إيتيل تقيم في قلب الغرب، فإن عينها الناقدة قادرة على تعرية الظاهر والنفاذ إلى الماوراء. ذلك أن فكر إيتيل المشبع بالفلسفة جعلها مفكرة من الطراز الأول. ولأنها معنية بالشأن الإنساني، فقد استطاعت بموهبتها الفذة، أن تحوّل أفكارها إلى أدب شفاف وأخّاذ يتداخل فيه الخاص بالعام في نسيج محكم متوازن، يضع الشرط الفني فوق كل اعتبار. تقول عن باريس:

⁵ إيتيل عدنان، سماء بلا سماء، ترجمة فائز ملص، دار أمواج للطباعة والنشر، بيروت 1997م، الفصل الثامن ص 30.

"في المقهى تجلس صديقتي كلود ومعها كتاب شعر. لا يدور بيننا أي حديث مهم سوى أن باريس جميلة. لكن، كلمة "جميلة" تلك تتضمن قرونا من حياة وحروب، وأشياء عن العمل والإيمان والوفيات. باريس جميلة بكل تأكيد، وهي آخر مدينة عظيمة في العالم حافظت على روحها، وتعمل مثل ماكينة زُيتت بشكل جيد. "باريس جميلة" يا له من قول يؤلم، فذراعا المرء لا تكفيان أبدا لاحتضان اتساع كهذا. بوسع كلود أن تقول ذلك بكل براءة. ولكن وقعه أشد صعوبة عليّ، وأشد إيلاما أيضا. إنه يمزقني إربا. فباريس قلب القوة الكولونيالية الباقية على قيد الحياة، وهذا إدراك يرافقني كل ليلة إلى سريري."⁶

لعل من أبرز أعمالها الشعرية السياسية مطوّلتها الموسومة: "يوم القيامة العربي"، وقد صدرت بالإنكليزية عام 1998م، كتبتها الشاعرة تحت ضغط شديد من قسوة الممارسات السياسية ضد فلسطين والعراق وضحايا الحصار من الأطفال، مع تحافت الصوت العربي. أما قصيدة 27 أكتوبر التي كتبتها على إثر الغزو الأمريكي للعراق واحتلاله في 2003م. فقد كتبتها باللغة الفرنسية لأنها كانت مقيمة هناك. تقول في مقدمة القصيدة:

"انظروا، عبر التلفزيون، إلى إخوانكم يموتون
لا تحركوا ساكنا. هم الآن
في عالم آخر جديد
بلا منفذ"⁷.

ثم تقول، في مقطع لاحق من القصيدة:
"كنت أستطيع أن أذهب إلى المقهى المجاور
أتأمل البرد وهو ينسل في الخارج
بينما أنا أنعم بالدفء، أو ربما بممارسة الحب..
والقنابل كانت تنهمر على بغداد".

تحت ضغط عذابها المضني من جرّاء نهب التراث الثقافي العراقي، كتبت إيتيل قصيدة رائعة بالإنجليزية عنوانها: "مكتبة أضرمت بها النار"، تنعي بها الإرث الثقافي الذي ابتلعه نيران الحقد والكراهية، قالت فيها:⁸

⁶ Etel Adnan, Paris, When It'd Naked, p.7, The Post-Apollo Press, Sausalito, California, USA ترجمته إلى العربية مي مظفر وصدر عن دار الساقي، بيروت، 2007.

⁷ إيتيل عدنان، يوم 27 تشرين الأول 2003م، دار التوباد، تونس، 2004م، ترجمة خالد النجار (النص بالفرنسية والعربية).

⁸ استوحى الفنان العراقي رافع الناصري إبداع ستة أعمال مطبوعة بالشاشة الحريرية -سلك سكرين- جمعت في محفظة لتشكل عملا واحدا تحت عنوان: مكتبة أضرمت بها النار، مع ترجمتي للقصيدة إلى العربية،

"النارُ تلتهم عقولا من الماضي، إنه تفكيكٌ حضاريّ،
يعدو الحلاج ما بين النار هائجا ليعلن من أيّ منبر يراه: "أنا الله".

فتشب النارُ في أصابع قدميه وأظافره وشعره،
كلُّ ذلك جُعِل إلى الأبد في طيّ المجهول باغتصاب بغداد في يومٍ من أيام نيسانَ
كانت دجله فيه حبلى بالشّر المرتقب
فرعةً من اندماجها بمياه الخليج المخادعة".

كتبت إيتيل أولى قصائدها باللغة الفرنسية، لغة الثقافة والوجاهة، حين كانت في الثانية عشرة
من عمرها طالبة في الدير الكاثوليكي في بيروت، وهي قصيدة طويلة عنوانها "كتاب البحر". يتجلى
الشعر في هذه القصيدة بحس فلسفي تحليلي واضحاً، فضلاً عن كونها عملاً غير عادي لصبيّة يافعة.
تحدث القصيدة عن التواصل بين الشمس والبحر في علاقة تفاعل إيروسية، البحر أنثى بالفرنسية،
والشمس ذكر. لم يكن في حسابان إيتيل آنذاك أن نصوصها ستنتقل إلى العربية، لكنها حين أرادت ذلك
بعد حقّب، واجهتها معضلة حقيقية كانت الأولى من نوعها. فصيغة المفردتين بالعربية على النقيض
تماماً، إذ الشمس مؤنث والبحر مذكر، فكيف يمكن نقل النص إلى العربية؟ كانت تلك مغامرة أقدم
عليها عابد عازرية، فسقط في متاهة ارتباكات كثيرة من جراء التعامل مع المفردتين⁹:

"البحر! هذه القطعة ذات المخالب من الزبد الوردية!

أنثى تهب جسدها باستمرار

للشمس." (ص 15)

وفي مقطع آخر:

"البحر، بطراوة شديدة،

يستعد لقرانه النهاري... (ص 16)

وغير ذلك كثير لا مجال لاستعراضه هنا. فالبحر مؤنث في المقطع الأول، والبحر مذكر في المقطع الآخر.
وهكذا على امتداد القصيدة نجده تارة يمنح البحر والشمس معا صفتا الذكورة، وتارة أخرى يمنحهما
صفة الأنوثة.

يحتل البحر عموماً في أدب إيتيل وشعرها، والأبيض المتوسط خاصة، مكانة مهمة رمزا وواقعاً.
وهو محور أساس تتمركز حوله رؤية الفنانة، فمنه تنطلق وإليه تعود لتبحر ثانية في اللامنتهي. ليس من
محض الصدفة إذن أن نجد اقتران النور بالماء يتكرر على امتداد تجربتها الأدبية بدءاً من "كتاب البحر"،
فالماء عنصر جوهري يتغلغل في نصوصها كيفما كانت:

⁹ إيتيل عدنان، كتاب البحر، كتاب الليل، كتاب الموت، كتاب النهاية، ترجمة عابد عازريه، دار أمواج، بيروت، 1994م.

" أعشق نافورة مدينتي، لذلك أبطئ الخطى، أتطلع إليها، ألاحق سطحها المتموج، أعم (ذهنيا) مع أسماكها، أقرب بقدر المستطاع من جوهر ظلالها الخضر التي تجعل قلبي يخفق. بعد ذلك أطيّر بتمهل فوقها، مثل فراشة، أمتص برودتها حين أتحرك بمحاذاة حواجزها، ثم أصير ماءً، وصديقة للماء"¹⁰.

تتكون قصائد إيتيل من مقاطع صغيرة، كما هو شأن نثرها الذي يعتمد فصولاً قصيرة. إنها في واقع الأمر نصوص مفتوحة ذات خصوصية فريدة؛ مقاطع منفصلة، لكل منها استقلاليتها، ولكنها ترتبط بما قبلها وبعدها ارتباط الفكرة بالفكرة، والنغمة بالنغمة، والموجة بالموجة. كل منها يُقي الباب مفتوحاً لما قد يأتي بعده، في تواصل يمكن أن يمتد إلى ما لا نهاية. لغتها رقيقة، ونبرتها خافتة، مع أنها تنضح بآلم يخترق الوجدان اختراق مديدة رفيعة حادة.

في الوقت الذي تتبع فيه إيتيل نظام قصيدة شبيها بقصائد الهايكو، نجدها تتجاوز هذا الفن لتضيف إليه من ذاتها ومخزونها الثقافي ما يجعله في نهاية الأمر أدبا خاصا بها. فالمؤثرات اليابانية ما هي إلا مصدرا من المصادر المتعددة للمكونات الثقافية المتعددة لإيتيل. ولعل ما كتبه عنها خالد النجار، مترجم مطولتها الأثيرة (27 أكتوبر 2003)، يختصر إنجاز إيتيل الشعري قائلا: "عندما كتبت هذه الشاعرة العربية المحاطة بالصمت "حررت فجأة عدة أشياء في الآن نفسه: حررت النص، وحررت التخيل، وخرجت عن كل المرجعيات الثقافية .. فأنت لا تجد لها قوالب ولا تراكيب ولا صيغ لغوية تراثية كالجحة لتعبيرها. إنها بلا ذاكرة، وبلا عادات لغوية متحكمة. ففي كل لفظ لديها إبداع"¹¹.

في كاليفورنيا أصدرت إيتيل عدنان مذكراتها¹². وهي لا تتبع تسلسلا زمنيا في سرد أحداث معينة أو الوقوف على محطات في حياتها، وإنما تنطلق من حالات: المكان، الطقس، الطبيعة ثم تنتقل إلى تفاصيل حدث معين. إيتيل معنية بالمكان عناية خاصة، شعرها ونثرها ينم عن انفعال به وتفاعل معه ينبع من قدرتها على التكيف واستخراج رؤى جمالية من محيطها الطبيعي. فالشجر والزهر والبحر والجبل والمباني كائنات لها ظاهر وباطن يغري الشاعرة بسبر أغوارها، ناهيك عن تحويلها إلى رفقة مؤنسة تخاطب الشاعرة، وهي تلوذ بها. أما الطقس فهو العامل الحاسم بتوجيه أمزجتها والتحكم بروح النص لديها: "تسير الأفكار مع الطقس يدا بيد، واحدها يلطف الآخر"¹³. ولعل المقطع التالي يظهر بجلاء مدى عمق هذه الصلة:

¹⁰ Paris When It's Naked, p.71. كان لي شرف ترجمتها إلى العربية في أثناء حياتها، وصدر الكتاب عن دار الساقى، بيروت، 2000.

¹¹ المصدر السابق.

¹² Etel Adnan, Post Apolo Press, Sauseleto, California, 2005.

¹³ Paris, When Its Naked, p 111.

" حين تكون الشمس بعينها، بكل مجدها المتقد، عاجزة عن إحماء الأرض، فإن عقل الإنسان يتقبل الهزيمة. ريح باردة تهب مارة بالروح، وفي الوقت الذي يرتفع فيه الضياء على اليابسة تدريجيا، تغلفنا عتمة ذات طبيعة أخرى. لا أستطيع في ضوء النهار الصافي أن أعثر على هذه الروح الخاصة بي، فينبغي أن يظهر يكشف سلوكي عن النزعة الموروثة التي تسير حياتي. لقد بدأت الصلة بين ساعات النهار والساعة البيولوجية في داخلي تتراخى. لن يكون من المستبعد أن ينفصل واحدها عن الآخر في وقت قريب. الجو بارد. درجات الحرارة دون الجمود. والمعاني المجازية لكل من الجنة والنار تفقد فاعليتها"¹⁴.

إيتيل عدنان: طفولة الفن

بدأت إيتيل تدرّس فلسفة الفن في سوسليتيو (كاليفورنيا)، عندما شرعت بممارسة الرسم بتصوير أشكال مجردة تتواصل مع بعضها البعض الآخر بإيقاع منتظم في كتل لونية متضادة تستمد موضوعاتها وتكويناتها من المحيط الطبيعي. جاء أسلوبها معادلا للشعر، وحلاّ مُرضيا لمعضلتها اللغوية. ظل الشعر والرسم عالمان منفصلان لدى إيتيل عدنان حين ما شرعت بمحاولات إدخال النصوص الشعرية العربية في تكويناتها الفنية بأسلوب معاصر، مستعينة بالألوان المائية والأحبار. وأقدمت على تنفيذ مشروعها الفني عندما اكتشفت الرسم على الدفاتر اليابانية المطوية (بشكل أكورديون)، وبدأت تضمّن قصائد لشعراء عرب على غرار الكتب اليابانية القديمة المنقّذة بتقنية الحفر على الخشب. وبتأثير أيضا من التجربة اليابانية، انبثق في ذهن الفنانة شيء كان متخفيا منذ سنوات الطفولة عندما كانت مجبرة على استنساخ جمل عربية لم تكن تدرك معناها. هكذا استيقظت في ذهنها تلك التجربة الطفولية، وبدأت تستعيد الحروف والكلمات التي كان لها سحرها الغامض. وبهذه الوسيلة شرعت إيتيل بتقديم تجربة تؤكد الصلة بين الشعر والرسم من جانب، وبين الرسم والموسيقى من جانب آخر، مستعينة بهذا الشكل الممتد لصفحات الورق. فأتخذت من قصائد الشعراء العرب مادة لتصوير دفاترها المرسومة تكتب فيها جملا. تقول:

"لم أفهم منها سوى كلمة واحدة كنت أأخذها مفتاحا، كأني أنظر من خلال حجاب،
أو أطلع إلى منظر خارق الجمال من وراء ستارة. بل كأن الستارة لا تمحو الصورة
بقدر ما تمنحها درجات لونية وتجعلها تبدو أشد غموضا مما كانت عليه"¹⁵.

تستنسخ إيتيل عدنان قصائد الشعراء العرب بخط يدها، قاصدة من خلال هذه التجربة أن تقدّم كتابا مرسوما بالخط العربي واللون لا يتوخى تقديم صور إيضاحية للنص، وإنما يقدم صورة موازية

¹⁴ المصدر السابق ص. 47.

¹⁵ To write in a foreign language- Etel Adnan

له، وهي صورة لا تُلْتَقَط من نظرة واحدة وإنما تتكامل في سلسلة الصفحات مثل موجات متعاقبة، أو نغمات موسيقية متواترة، ومثل مقاطع شعرها، وفصول نثرها المنفصلة عن بعضها والمتصلة في آن واحد. من خلال تجربة الرسم على هذه الدفاتر المطوية الشبيهة بآلة الأوكوردون، والتي كانت رائدتها في العالم العربي، عُرِفَت إيتيل فنانة رسامة، وتغلغلت في النسيج الثقافي العربي، فشاركت في المعارض الجماعية إلى جانب المعارض الخاصة التي بدأت تقييمها في بعض العواصم العربية كالرباط وببيروت والقاهرة ودمشق.

يبدو للمطلع على هذه الأعمال أنها تحمل الشيء الكثير من لهُو الطفولة، بل توحى إليها وإليه بأنها أشكال صُورَتها ريشة طفلة، وهذا ما يتطابق تماما مع شخصيتها وسلوكها التلقائي. لكن المتمعن في هذه الصور المعبّرة يمكن أن يرى أشياء أخرى تختبئ وراء الحس الصافي للون وتداخله العميق مع الضوء. ثمة نقاء يشيع من هذه الرؤى، بل فيض من صفاء نفس لا يتوافر عليه إلا روح نبي في حالة تجلٍ. كما أن الإشراق القادم من سطوح هذه الصفحات المشبعة بالضوء، إنما هو رديف أدبها الزاخر بالبحث عن تخوم الضوء ومدلولاته.

في واحدة من تكويناتها الخطية ترسم إيتيل (هي ترسم الكلمة ولا تكتبها) لفظ الجلالة مكررا على صفحات دفتريها المطوى بألوان متعددة. لا يقع هذا العمل الجريء في دائرة فن الخط التقليدي ولا في دائرة الرسم الحروفي الذي شاع في مرحلة الستينيات والسبعينيات بين الفنانين. في وصف لهذا العمل، أخبرني الفنان رافع الناصري:

"هذا عمل فريد من نوعه، يتكرر فيه اسم الجلالة بألوان متعددة، ويتكرر بإيقاع صوفي غير رتيب. فإيتيل رسمت اللفظة منفردة على صفحات الدفتر بشكل لا يمتد باستقامة واحدة، مما يجعلها (اللفظة) تبدو غامضة وصريحة في آن واحد."

ترسم إيتيل إلى جانب هذه الدفاتر، التي غدت سمة ملازمة لفنها، صورا زيتية ومائية توحى بمشاهد طبيعية أحيانا، وأحيانا تقدم خلاصة لونية لفكرة مستمدة من مشهد مرئي. لم تقف تجربتها الفنية عند الورق والقماش، بل امتدت لتشمل خامات أخرى كالسجاد والخزف. غير أن فنها الأثير إلى نفسها هي تلك الخريشات التي تنثرها على سطح اللوحة ترافقها العناصر الصغيرة التي أدمنت على رسمها وتكرارها بإيقاع صوفي، فتوصلت، مع المران المتواصل، إلى اجترار أبجدية خاصة بها.

لعل العربية لدى إيتيل عدنان ظلت فردوسا محَرّما، وحين تُسأل اليوم عما إذا كانت تشعر بأنها منفية لعدم قدرتها على التعبير بالعربية تقول:

"نعم. ولكنه نفي يمتد إلى حقب من الزمن حتى أصبح جزءا من طبيعتي."¹⁶

¹⁶ من مقابلة خاصة مع الشاعرة إيتيل عدنان.

لذلك ترى أنه من غير المجدي البكاء على الظروف السياسية والاجتماعية التي وضعتها أمام هذا الاختيار، ولا مجال للنظر إلى الوراء. إنها ابنة المكان والحاضر، تكتب شعرها أينما تكون، وباللغة التي تتقنها، وعليها أن تتطلع باستمرار إلى الأمام، وهذا ما فعلته وتفعله، وهي تعيش موزعة على أمكنة ثلاثة: بيروت وباريس وسان فرانسيسكو.

خاتمة: لماذا كانت إيتيل عدنان أكبر من الحياة

لنهاية حياتها، لم تفقد إيتيل عدنان نشاطها الإبداعي. وكان الرسم ملاذها وسر حيويتها. ظلت طوال حياتها شخصية ثانوية في الأدب العربي وفنونه، لعدم إدراك مكانتها. لكنها في السنوات الأخيرة، وبدءا مع العقد الأول للقرن الحادي والعشرين، بدأت معارضها تغزو أوروبا قبل أن تقيم لها مؤسسة بارجيل في الشارقة معرضا تكريما تحية لها ولإبداعها. كنت أنا ورافع الناصري على صلة شخصية معها امتدت لنصف قرن. قبل وفاتها ببضعة شهور ظهرت مع الإعلامي المعروف ريكاردو كرم، ليحتفي بعيد ميلادها السادس والتسعين، وأطلت ببسمة الطفولية ووداعتها ترد على أسئلته. وفي نعيها ظهر خبر على وسائل الإعلام تحت عنوان: لماذا كانت إيتيل أكبر من الحياة: "كانت رحالة بين حضارتين، وثلاث قارات، وثلاث ثقافات". كانت "إيتيل عدنان 1925 - 2021"، فيلسوفة رائدة للقرن الذي ولدت فيه، وهي فنانة ملتزمة وناشطة تبنت قضايا المضطهدين. كانت توصف من قبل كل من عرفها أنها كريمة بقدر ما هي متنورة وواسعة الثقافة، في منتهى الذكاء وموهوبة جدا. باختصار. "كانت أكبر من الحياة".

مي مظفر: شاعرة وكاتبة عراقية مقيمة في عمان.